رحلة الإيمان

الدكتور
عبدالقهار داود العاني



تأليف

الدكتور عبدالقهار داود العاني

الدار العربية للطباعة - بغداد

هاتف ٢٧٠١٥

الطبعة الثانية
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

في قرية جميلة من قرى الانسانية المعذبة وعلى سهل من السهول تحرسها التلول والجبال وتنساب خلالها ينابيع الماء بهديره وموسيقاه في الجانب الايمن منها تسكن (عائلة متواضعة) في معيشتها غنية في نفسها تعودت الصبر على مشاق الحياة ، تتحمله وحدها دون أن تظهر ما ينتابها من الخطوب . وكان رب العائلة رجلا كريما وفيا مؤمنا بالله ايمانا جعله يشق طريق الحياة ويرضى بما يلقاه من غير ضجر او يأس وكان كلما احاطت به المآسي يجلس على سفح ذلك الجبل الاحمر حيث لون الصخر الذي عركته السنون وداسته الاقدام زمنا طويلا . وعلى ذلك السفح يتفكر في خلق الله وبديع صنعه ، ثم يقول : عجبا لمن يشهد خلق الله وابداعه في سمائه وأرضه ولا يسجد شكرا وعبودية خالصة له . وكان له ولد يحبه حبا جعله يصطحبه الى البستان والحقل وجلسات الليل المؤنسة . وكان من حرصه عليه انه قد اوصى به شيخا صالحا يتردد عليه الشاب ليلة كل جمعة ينهلون من علمه وفضله . وكان يأخذ به الى تلك الجلسة بعض الامسيات . ولما صار عمره تسع سنوات أخذ الرجل يأذن لابنه لحضور تلك الامسيات وحده . ولقد حدثنا هذا الشاب عن حياته ومأساته وما عاناه في شبابه، وما كان له من عزم صادق وايمان راسخ تغلب به على المصاعب ودانت له نفسه رضية بما منحه الله من النعم .

(ومهما أحدث عن ذلك فانه ليس الخبر كالمعاينة وليس الوصف كالحقيقة) وانني لارجو أن يستجيب من يقرأ قصتي لنداء النفس العميق ويجاهد حين يسمع أنات طوت القلب حزنا ، فكلمته قبل أن تكلمه أسرار الحياة ولعل ذلك النفر نادر ، ولكن مع ندرته فهو سر الحياة واذا كنت قد عشت وكأني غريب قذفت به عوادي الزمن ومآسي المحن فما أحلى الغربة مع الهناء وما أقبح الوجود مع الشقاء فهل يلفني اليأس بمآسيه وهل أكون كمن يذرف الدمع من مآقيه . تحدثني نفسي حديث المعالي والسمو أن لابد من معاناة مشقة الطريق ومكابدة لبنى الانسان والنصح لهم لعلهم يستقيمون في طريق الحياة فأبصر الحياة وأتحمل مشاقها ، وأنظر الى الامل وتحلو لي نظراته ويمتلىء قلبي به ، فلا يأس ولا استكانة ولا ضياع ولكن جهاد واجتهاد وتطلع وارتياد . وسيرى الذين يقرأون صفحات حياتي كيف تكون الحياة وسيكون لي منها عبر واضحات وآمال باهرات تبصرهم بحياة الطريق وطريق الحياة . لقد كانت لي أم غمرتني بحبها حتى بالغت فيه وكانت تغضب اذا أراد والدي تأنيبي وتأديبي وتقول له : اذا كبر هذا الصبي ورشد وقد عرف الخير وميزه من الشر فان ذلك كفيل باتمام النقص عند الانسان بعد وعي الحياة وادراك الامور .

كانت تحرص على بقائي معها دائما ، والدي يرى أن يبصرني ببعض شؤون الحياة حين مرافقته . فان طالت غيبتي أحيانا تقلق لذلك وتظل ترقب الطريق من الشباك الصغير ، فاذا رأتني اطمأنت وانصرفت الى اعمال

البيت . ولقد رفضت لاكثر من مرة ان اسافر مع أقراني الى القرى المجاورة في الربيع حيث أشجار البنـــــدق والجوز شامخة على الجبال المجاورة لنا ، فاستجيب لها احتسابا لما جعله الله في طاعة الوالدين من منزلة عظيمة .
وما ان بلغت العاشرة من العمر حتى فجعت بموت أبي وأستاذي الذي علمني بعض دروس الحياة في تقاه وورعه وكرمه وجده واجتهاده وكان مما يرفع مكانته في نفســي انه كان حريصا على اصلاح ذات البين . فكم من ليال طوال في شدة البرد قضاها في اصلاح ما فسد بين أقربائي او الجيران أو الاصدقاء ولئن كنت قد بدأت أول الطريق فان سني لاتسمح لي بأن اكون مكان أبي في البيـــت وخارجه . وكانت اخر وصية له وهو يكابد ألم المرض :
يا بني اتق الله وعليك بأخي وصديقي (أبي ابراهيم) فانه والله خير مني في رعايتك وتوجيهك ولا تطل عـــلى نفسك ألم المصاب فانه سبيل كل حي ، واعمل الخير تكن من الفالحين . ولقد ارسل ابي بطلب (ابي ابراهيم) مرارا لكنه لم يكن موجودا ، اذ قد سافر الى احدى القرى لبعض حاجته . فما أن كان المساء قد فارق أبي الحياة وهـــو يوحد الله ويذكره ويرجو مغفرته وعفـــوه . فاقبل الليل والدنيا صارت عندي كالوحش البهيم وبيتنا الجميل صار كأنه عفريت في كهوف الجبال ونفســي ضاقت وكأنها تصعد في السماء .. ماذا وماذا يارب عسى أن أفعل .. اليس الصبر ولكن من لي وللصبر وانا في سن من لم ير الصبر قبل .

كيف يطعمه ويتذوقه وامي المسكينة التي اغمى

عليها ولا سبيل الى وعيها رغم الماء الذي نثر على وجهها
ولكنه ذهب سدى فكأنه قد رش على نار متأججة فتلتهم
الماء وتزداد اشتعالا . ويأتي الشيخ الصالح ويسمع
بالوفاة فيتألم لفقد أبي كما يتألم لعدم شهوده ويدخل
بيتنا ليشهد المأساة ، مأساة صبي لا يزال غض العود
والفكر ويسمع البكاء ، بكاء الاقارب والجيران ، ويسمع
ما أصاب أمي فهي لا تزال في غيبوبة التائه فصارت
امامي الان مصيبتان احداهما عظمى في وفاة أبي ومصيبتي
في اغماءة امي التى صارت من الخطورة بمكان . ويحدثني
الشيخ أبو ابراهيم حديثا لا أفهمه ولا أريد سماعه
يحدثني عن الصبر وعن مأساة الانبياء والاولياء الصالحين
وكأنه يحدثني بغير لغتنا . واخر ما سمعته منه اني انا
أبوك فلا تحزن .

مع الشيخ الصالح

وتنتهي المأساة ويظل الشيخ يزورني ويرغبني في
المجيء الى بيته في كل وقت خصوصا ليلة الجمعة ، تلك
الليلة التي يجلس اليه فيها من يرغب في العلم من الناس .
فلما يطمئن الى حضورهم ويتأكد من كمال عددهم ، تظهر
على أسارير وجهه تلك الابتسامة الهادئة والفرحة الهانئة
يرتفع صوته الندي مجيبا : مرحبا يا أحبائي أهلا بكم
سببا في البركة ، مرحبا بعيال الله ، مرحبا بأخواني
فيجلسهم على حصير جميلة زاهية صنعت من جريد النخل ،
نسجتها أنامل زوجته العجوز (أم ابراهيم) تلك الانامل
التي أنهكتها الايام والسنون ، ويقدم لهم من الثمار ما

شاء الله ان يجني منها ولقد كان يقدم لهم كعادته آكلته المفضلة العصيدة ـ وهي أكلة شعبية لذيذة تصنع من الذرة المطحونة ويضع في حفرة صغيرة في قمتها كمية من السمن ، الذي أخرجه من نعاجه وأبقاره التي يرعاها ذلك الراعي فيعطيه أجره ويغدق عليه الا أن الشيخ كان يشكو قلة أمانته وضعف دينه ـ ولكنه رجل طيب لايريد ان يمنع عنه رزقا أو يدخل في قلبه حسرة ولقد أرسل في طلبه مرة ليسأله عن سبب قلة حليب احدى البقرات ٠ فهي بقرة حلوب وكانت صفراء فاقعا لونها ، فلقد منحتنا في الليلة الماضية ثلاثة أمثال حليبها هذه الليلة ، فتردد قليلا في الجواب وهو يمسح جبينه ويفرك يديه قائلا لقد كنت حريصا على حسن رعيها ورعايتها ثم أصابه الوجوم وشرد ذهنه برهة ثم انتبه على صوت الشيخ يسأله : ما الذي جعلك تذهل هذا الذهول وتسرح بفكرك ٠ أي أمر استوقفك وأشغلك عنه ؟ فقال : لا ٠ لاشيء ، سأكون عند حسن ظنك بي ، لن أقصر في واجبي بعد الان ويتمتم بعدها بكلمات غامضة حين يبتعد عنه الشيخ ، ثم يقول مع نفسه بصوت مسموع : لا ٠ لا لن أفعل ما يغضبك لقد وقعت في ما هو أعظم من هذا٠لا لن ابوح ،لن ابوح، آه ٠٠ آه واحسرتاه ليتني لم أفعل ، ليتني لم أطع الشيطان ٠ ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ، ٠٠٠ ويقهقه الشيطان ويتبعه : لم تمقتني وأنا حبيبك ونديمك وشريكك في الملذات ٠٠ فكم هيأت لك من حسناء لمالية في ظهر الفلا تقضي معها نشوة الحب على ضوء القمر وكم هيأت لك من الطعام والشراب ما أحلى هذه المسرات ،

وأطيب تلك السهرات لقد كنت أرجو أن تغمرني بالشكر والحمد ، وتقدم لي الولاء والطاعة لقاء الفضل العظيم والخير المستديم ، ويربت على كتفه ويحسن له فعلته ولطالما بقي في نفسه بقية خير وكان في قلبه بصيص نور وأثر يقظة فيندفع بغتة ويقول انها ليست مسرة ليست خيرا ، انها منكر انها سحت انها فاحشة . فرد عليه قائلا : انه الحب الجميل انه الحب البرىء ، لا بد منه للانسان والا كان كالجماد لا يحسن ولا يحب وان الله جميل يحب الجمال .

برىء برىء ، حب بريء ما أمكر هذا الكلام ليتني لم أسمعه ولم أسلك طريقه .. ويمضي الراعي ذلك الليل وقد أضناه السهر وارهقه التفكير في صراع مع نفسه بين قلب يريد اسلامه الى الخير ، وبين هوى ونزوة يريدان ايقاعه في هاوية الحياة ينسلخ الفجر ، من الليل ظلامه وتهب الصبا تنعش ريحها ، وينطلق الراعي يرعى غنمه على جنبات السهول الخضراء وحول البرك المائية الصافية والطيور تنشد شعر الحياة الطاهرة في حنان لا يشبهه حنان البشر في شائبة من المصلحة والهوى . وتبقى ليلة الجمعة التي كنا نترقبها ونحرص عليها لنسمع من الشيخ الذي أحاطناه بوقاره ولفنا بحنانه الصادق . اه ليت لي وقاره وأخلاقه وحسن كرمه ، وفي هذه الليلة التي جلسنا نستمع الى الشيخ بشغف عظيم حين قص علينا قصة صديقه وما آل اليه أبناؤه وأحواله .. قصة الايمان والحياة فقال : لقد كان في القرية رجل صالح وكان لي صديقا حميما وأخا وفيا ، وكان له بستان كبير جميل مثمر تحوي من الاشجار انواعها ومن الثمار أحسنها

واطيبها . وكان الفقراء والمساكين يرقبون اليوم الذي يجني فيه ثماره ، ويمنحهم نصيبهم الذي جعل الله لهم في ماله . لقد كان في بستانه الخوخ والرمان ، وكان الرمان خاصة بحجمه وطعمه ولونه من أجود الانواع ، فهو يهديني منه سلة كل عام ويدعوني بالحاح لحضور قطاف الثمر ويقول لي : لشد ما أفرح بمجيء أولئك الفقراء والمساكين وأحمد الله الذي مكنني من اعطاء اخوتي الفقراء والمساكين ما يغنيهم عن ذهاب ماء الحياة بالتسول وهذا الذي أفعله أمر من الله ورحمة منه فأنا وكيل مؤتمن على مال الله أنفق منه على نفسي وأهلي واتصدق منه وأهدي كما أشاء من غير بخل ولا اسراف .. ذلك فضل الله ولقد كان من حسن خلقه اني شاهدت مرة أحد الفقراء والمساكين يغلظ القول معه ويلح في الطلب الا ان الرجل يبتسم له ويتبسط معه في القول ويربت على كتفه ويعطيه مطلبه عن رضا ويقبّل رأسه ويقول له : (يا أخي لعلك رضيت وطابت نفسك) . فيظهر السرور العظيم على وجه الفقير ويقول (بارك الله لك في أهلك ومالك) . ويعود الي بعد الذي حصل في بشاشة وسرور وطيب نفس ويقول : يا أبا ابراهيم : اياك والتفريط بحقوق الله في عباده فلن يبارك الله أمرا لا تصان فيه حقوقه .

وفي أحد الايام طلبني في بيته والليل يسدل استاره ولم أعهد مثل هذا الطلب في ذلك الوقت فلبيت طلبه ودخلت بيته فاذا به قد جمع أولاده فجلسنا حول نار حلوة في الشتاء البارد ، وقدم لنا من الخبز الحار والعسل المصفى وغير ذلك مما جادت به نفسه الكريمة ثم قال لي:

يا أخي لقد جئت بك لتسمع وصيتي لاولادي لاني لا ادري متى يقضي القدر بفراقي ، والله وحده عليم بالآجال وما تئول اليه الاحوال • فأردت أن أزودهم بنصيحتي،والتقوى خير زاد لمن عرف طريق الرشاد ، ثم ألتفت الى أولاده فقال لهم (يا بني ان الدنيا دار فناء وانه لن يفلح فيها من كثر ماله وعظمت قوته وتزاحم أولاده وأعوانه ، ولكن من صلح عمله وعمل الخير الذي أمره به ربه وصان مـــا استخلف عليه فأطـــاع واستقام •• يا بنـــي ان هـــذا البستان من نعم الله العظيمة علي ، ولقد بدأتها قاعـا صفصفا وبدأت غرس أشجارها بيدي بعد أن أخرجت منها صخورا عظيمة وهيأتها للزرع مع شح المياه وانتظار السحاب وهطول الامطار ، وما كان يدور في خلد أحد من القرية أن تكون لي هذه الاشجار المثمرة بأغصانها الكثيفة وكان اذا مر بي الناس زرافات ووحدانا يتهامسون فيمـا بينهم : ماذا يفعل هذا الرجل ينتظر شجرا مثمرا لكأنه يضرب على حديد بارد ، ولقد سبقه الى ذلك رجال كثيرون بذلوا من الجهد عظيمه • ومن الماء غزيره فذهب ما قدموا سدى فدفعني الى ذلك ثقتي بالله ويقيني بفضله وكرمه واحسانه مع قصدي الحسن وأمنيتي الصادقة ان يشاركني في نعماء الله اخواني الفقراء والمساكين ويسعدني في الاخذ منه يتامى الزمان وأرامل الحرمان ولن يخيب الله عبدا سأله باحسان • فتوكلت على الله في السر والاعلان وبدأت أرعى تلك الشجيرات ليل نهار ، كما كنت ارعاكم وأنتم في الطفولة تسرحون وتمرحون في بحر من النسيان • فاذا بالفسائل تكبر والشجيرات تعمر ، واذا بي بعد جهد

العناء ارى الثمر الطيب قد بان على أغصان الشجر والطيور تتلمسه وتذوقه فتباركه متنقلة بين ثمار الاغصان وعطر الريحان ، فلما حان للثمار قطافها وعزمت على ذلك في يوم من الايام قررت اسهام الفقراء والمساكين وفاء بنية الصادقين ، وكنتم اذ ذاك في ريعان الصبا فلم تروا حرها ولا قرها ، والحقيقة التي لابد من البوح بها أن الشيطان بعد أن كثر ثمر البستان وازدادت نسبة التصدق الى فقراء الزمان قصد اغرائي واغوائي ومنعني من التصدق فقد كفى ما قدمته في سالف الايام ولكن ايماني بالله وطمعي في عفوه ومغفرته ، وخوفي من غضبه وعقابه جعلني أبقى على عهدي معه أوثر الخير على الشر والهدى على الضلال . ولئن كنت أخشى عليكم من شيء فانما اخاف عليكم أن تمتد بكم الايام تنظرون الى هذه الجنات من النخيل والاشجار يزينها ما يجري تحتها من الانهار وتعزف لها أصناف من الاطيار عندها يوسوس لكم الشيطان سلوك البخل والاثرة والبعد عن الكرم والايثار ، ويأخذ الطمع والانانية مأخذة في نفوسكم .. اه واحسرتاه ليتكم تنهجون نهجي وتتبعون سنتي .. فما نقص مال من صدقه) ويتناثر الدمع على وجنتيه تناثر الفضة على قطعة من النحاس وتنعكس في وجهه آلام المستقبل لبنيه ، والبعد عن النهج الذي يرتضيه وينبري أحد أبنائه يعاهده على السير حسب سيرته والتصدق على طريقته ويكفكف عنه دموعه ويقبل رأسه الذي اشتعل شيبا فيقول في حسرة عميقة وأنّة متضرعة : الحمد لله الذي جعل من ذريتي ابنا يعاهدني على طريق الايمان .

الاجل المحتـــوم

وتمضي الايام وتتوالى الاحداث وفي يوم من أيام الربيع اذ الحدائق قد اعشوشبت وأزهارها الجميلة قد تفتحت ، فأغدقت على الناس بروائحها الشذية العطرة وبينما نحن جلوس في بيتنا نرشف القهوة ونتجـــاذب أطراف الحديث عن الحياة وأسرارها وعجيب خلق الله فيها عن الموت الذي هو خاتمة البداية لسفينة الحياة اذا بطارق يطرق الباب فيؤذن له بالدخول ويفاجئني بمرض ذلك الشيخ ، وأنه يطلب حضوري ، فلبيت مسرعـــا ودخلت عليه وهو ملقى على الفراش من شدة المرض ، فاعتراني من الحزن ما لم استطع اخفاءه . فسلمت عليه فرد علي السلام . ثم ابتدرني وهو في نَفَس متقطـــع يتحامل على نفسه ليحدثني وليكرر وصيته التي ذكرها : يا أخي أنت جار عزيز وصديق حميم . ولي عليك حقوق الاخوة والجوار ، أوصيك بأهلي خيرا وبأولادي خاصة ، فاني أخشى عليهم عدم الاخذ بوصيتي ، والتفريط بحقوق الله فما ضيع أحد حق الله الا ضيعه ومحق بركته ، فطمأنته ثم عقبت قائلا : لعل الله يشفيك ويذهب عنك سقمك فقال لي وهو يذرف دموعا حارة : لا . يا أخي لقد حكم الاجل وانقطع الامل . والتفت الى أولاده وكأنـــــه يعاقبهم فنكسوا رؤوسهم وبكوا . وكان نظره المستديم الى أوسطهم وكان في تلك النظرة سر يكمـــن في قلبه . ولم تمض الا دقائق معدودات حتى بدت قواه تضعف وأنفاسه تهبط ، وهو يسترق النظر الينا والوجوم قد خيم عـلى الجميع ونسمع منه ترنيمة من قلبه المؤمن يرددها : لا اله

الا الله ٠٠ اللهم مغفرتك وعفوك اللهم احشرني مع عبادك الصالحين ٠ وتمر الدقائق خانقة واثار الموت ترتسم على وجهه الطاهر ويرسل الرجل نظراته الاخيرة مودعا دنياه ومتهيئا لاستقبال آخرته ، وينفجر البكاء والعويل من اولاده وكان أشدهم بكاء رغم صبره ذلك الشاب الذي كان يغمره أبوه بنظراته الخاصة حين وصيته لولده لينكب على وجه أبيه يقبله وتنساب دموعه الحارة على وجه أبيه وهو يقول : (استودعك الله يا أبي ٠٠ اللهم ارحمه وأسكنه فسيح جنتك) ٠

وفي وسط الاسى والحزن الذي عم القرية كلها ، يواري في التراب ٠ لقد كان محل اجلال أهل القرية واحترامهم لعلمه وورعه وفضله ، وتفقده لهم في مرضهم او فقرهم أو ترحهم أو مرحهم ٠ لقد كان لهذا الرجل الصالح فضل علي اذ كان يوصيني بالوصايا الخالدة حين كنت أغشاه في بستانه ، وهو يعمل من غير سأم لاينسى الله في حياته عابدا أو عاملا ولقد قدم ذوو الشيخ الراحل الطعام لاهله لانهم مشغولون بمصابهم صابرين ممتثلين لوصية الشيخ الراحل رحمه الله قبل موته ، ألا يفعلوا ما يفعل الجهلاء من لطم الخدود وشق الجيوب ونواح وغيره مما يغضب الله عزوجل ٠

وتمضي حالكات الليالي وأنا أحرص على ذلك الدرس كنت حريصا عليه ليلة الجمعة ٠ فلقد كانت وصاياه وحكمه نبراسا استضيء به في ظلمات الحياة وكنت استرشد بوصاياه في سلوكي لاني اعتقد أن العبرة بالعمل بما أعلم لا بحفظه ، وكان يوصيني كثيرا

بطلب العلم وحسن العبادة وطاعة الوالدين وبرهما ·
وكانت أقواله تمضي في نفسي كالسلسبيل · وفي ليلة
من الليالي المقمرة والنجوم ترقب الكون في جلال وهيبة
تذكرت فكرة كانت تراودني حين سمعت همساتها من
الرجل الذي أوصاه أبي بي خيرا قبل وفاته انها فكرة
الذهاب الى مكان في أعلى السهول والجبال حيث الهدوء
وما خلق الله في الارض من اشجار باسقات وأزهـــار
جميلة وأطيار تغني غناء القلب بصدق وحنان · وهناك
أستطيع الخلوة مع نفسي في عبادة واستغفار وعلي بعد
ذلك أن أعود الى القوم بنفس قوية وروح صافية قـــد
عرفت الله واحدا وخضعت له في كل شؤون الحيـــاة
وخاصة واني ارى في قومي ـ وأنا شاب يافع ـ ســـوء
الاخلاق وقساوة القلوب ، ولكن يا ترى هل أستطيع أن
أقنع أمي وهي الحريصة على بقائي بجوارها ، وهـــي
لاتدرك هذه الحياة الصعبة التي أحياها مع أقران معظمهم
يغشون المجون وأنا عندهم محل سخرية واستهزاء ،
ومثلي ومثلهم كما قال الشاعر يصف موقفهم مني :

أيها الحائر في غربتـــه	يتمنى النصر في دعوتـــه
كلما مر به اقرانــــــه	كلموه عن أسى وحدتـــه
ودعوه نحو لهو عاجـل	غانيات في هوى لذتــــه
يسامرن الليالي في هنا	يستترن الليل في حلكتـه
يتبادلن هوى العشق لظى	وشربن الكأس في نشوته
قال كذبا في ادعاء عاشق	فتوارى من هوى بثنتـــه
قال مهلا لا تقولـــــوا	مثل هذا القول في وحشته
كم نظرت الزهر في روضته	وأجبت النجم في روعتـــه

الا صب تيم الحب هوى في ربا مكة في كعبته

واطلت النظر ودققت الرأي وأعددت لكل سؤال جوابا ، وكنت شديد الرغبة في مفاتحتها ، ولكن الجرأة كانت تخونني وليس لي العزيمة المرجوة · فاستعنت الله في الامر · وفي ليلة من ليالي الربيع جلست اليها ، نتسامر ونتجاذب اطراف الحديث ··· تحدثني عن صباها وحياتها مع قريناتها وعن تبيان اخلاقهن وغرور البعض منهن بجمال باهر · وعن صديقات أخريات كن على حياء وتقوى وللناس فيما يعشقون مذاهب · كما حدثتني عن حرصها علي ورعايتها لي وتهيئة الراحة لي دائما ، فاذا بها تتوقف فجأة وتنظر الي برهة كأنها فطنت الى أمر ذي بال وقضية مهمة أفزعتها ·· فمع التنهدات الشديدة والنفس الطويل في حسرة مستديمة تطلعت الي وهي تقول : يا بني لقد صرت الان في مصاف الرجال ولابد من التفكير في زواجك لتحفظ نفسك وتحصنها من مزالق الشيطان ـ ولقد غلبني الحياء وتملكني الخجل وجبيني يتصبب عرقا ، فلم أستطع أن انطق ببنت شفة فمسحت العرق بأطراف ثوبي ولذت بالصمت الذى لا املك غيره ـ فلم آكن لاسمع هذا الحديث من قبل فكان لي مفاجئا فأطرقت قليلا، واذا بأمي تقترب مني وتضمني وتقبلني وهي تقول : هذا الذى اقوله سلكه من قبلك الآباء والاجداد · ثم اردفت تقول : اني أحب يا بني ان أراك سعيدا مع زوجتك بل أحب أن أرى لك أطفالا يتبعوني حيث ذهبت فذلك عندي من أسعد الامنيات ـ ليت ذلك يكون

رباه حقق لي مطلبي فأنت لاترد سؤال عبيدك فيما يرضيك • وأرسلت أمي زفرات وهي تتمنى ، وما كل ما يتمنى المرء يدركه • وبعدما ذهب عني الخجل تمالكت قواي وبدأت أفرك يدا بيد ، وأنظر الى امي خلسة فتنهدت وقلت : أماه انك تعلمين ما يكنه لك قلبي من حب عظيم وأحب ما ترغبينه ، فرضاك عني بعد رضا الله مطلب عزيز ، ولكني يا أماه لا ارغب في الزواج الان فلم يصل الامر حدا أخشى فيه على نفسي مما تحذرينه من الانحراف وانا شاب أريد أن أنشأ على عبادة الله عزوجل وأصبح على حال يرضاها ، فان كتب الله لي الزواج ، وهو أمر مباح فنعمة من الله عظيمة والايام طويلة والاحداث دول ، ونحن يا أماه كما تعلمين لا نملك المال الضروري لحياة زوجية فلعل الله يهيء لنا من كرمه وجوده ما أستطيع به الزواج وعندنا الان ـ والحمد لله ـ ما يعيننا على العيش والله هو الرزاق المستعان على الاحوال • لقد كنت يا أمي حريصا على أن أحدثك الليلة حديثا قد لا ترضينه وتقلقين له وأدعو الله أن يشرح صدرك له فتوافقيني عليه •• أماه لقد كان أبي يوصيني دائما بتقوى الله وطاعته وتوفي رحمه الله وأوصى عمي الشيخ الصالح برعايتي وتربيتي وكنت اقضي معه أكثر الوقت وأوصاني به أبي وأشار على أن ارتاد ذلك الجبل البعيد ، اتخذ لي فيه صومعة بسيطة أعد لنفسي فيها من الطعام ما يعينني على العبادة ويجنبني البطر والاسراف ويعصمني من أقوال الفساق وسوء الاخلاق ، واني والله لراض بما أقول مؤمن به حريص عليه ، فأرجو ان

توافقيني على ذلك والله يجعل لك الاجر في الصبر عنـي زمنا · وما أن أنهيت حديثي حتى رأيت سورة الغضب تغشاها وهي الهادئة وصاحت بي وهي تقول : تتركني تذهب هناك بعيدا عني ، حملتك كرها ، ووضعتـك كرها ، وسهرت الليالي لرعايتك ، فما كان لي من راحة الا في راحتك وصحتك ـ تهجرني تهجرني يا عاق · لو كنت مؤمنا لجاهدت فيَّ ورعيتني فان أصررت فوالله لادعون عليك بغضب من الله وشقاء في دنياك واخرتك ، وأن لا تطيب لك ساعة ولا يطمئن لك قلب ·· اياك اياك أن تفعل هذا فاذا بدموعها تنهمر على وجنتيها كالجدول الهادر ·· فأقبلت عليها أقبل رأسها وأطلب عفوهـا واقسمت لها أيمانا مغلظة أن أطيعها فيما ترغب فهدأ روعها ومسحت دموعها وهي تقول : أي بني لم تعذبني هذا العذاب وأنت المؤمن الوفي · وأدركنا الليل في هدوئه ونظرت النار بجانبنا وقد ذهب سناها ، وجلست قطتي الجميلة ترقبنا وقد غلبها النعاس لقد كانت تغشانـا كالجارية المدلهة · ونمت تلك الليلة في سهد · ولم أنم بضع ساعات الا وصوت الديك الجميل وسبحاته الندية في وهدة الفجر ·

فتنـة الحياة

وتمضي علي أحوال عسيرة من حياة فتى يمسـك نفسه عن ملذات الحياة ونزواتها في مجتمع لا يؤمن بها ويعتبر هذا من هذر المريض في حماه · ولم اكن احدث أمي عما أرغبه ولا هي تحدثني عن الزواج · لقد كانـت بعض الفتيات يأتين أمي فيتحدثن معها ومع قريباتـي

علهن يعرفن أي الفتيات هوى قلبي وأي صبية جميلة من صبيات الحي ملكت عواطفي ، وأخذت بأسباب فؤادي ـ لكن كن يجهلن أو لايصدقن أن قلبي ملء بحب الله مشغول به ولن يملكه غيره ، وان كان الزواج فسيأتي اليوم الذي أحب فيه المرأة الصالحة فهي خير متاع ، أي أسى أكثر مما اقاسيه وأي مأساة أعظم مما أعانيه ، لقد كانت بعض الفتيات يترصدن خروجي من البيت ليلقين علي سهاما من عيونهن الزرقاوات ويباهين بشعرهن الذهبي لعل كل هذا يثير في نوازع الغريزة ولئن حباني الله جمالا فهل تكون نعمة الله علي عصيانا وفسوقا ، وكنت أعتصم بايماني وأغض الطرف عنهن • ولقد كنت يوما على سطحنا أتلمس الدفء من الشمس قبيل وقت الاصيل اذا بفتاة حسناء تظهر لي فجأة من حسن جمالها ومواطن الاغراء فيها ما أثار في نفسي شواجنها وهيج فيها عواطفها ، فنزلت مسرعا الى البيت مصفر الوجه تعلوني رجفة كالطير بلله القطر شتاء وتبصرني أمي فتقول مستغربة : مالك يابني ؟ فقلت : لاشيء فقد ذكرت أمرا مضى فاعتراني ما ترينه • ومع كل هذه العصمة والثبات لقد بدأت أحس بما يحس به كل رجل من ميل الى النساء ورغبة في الزواج في عفة وطهر ، وصارت رغبتي في الزواج جامحة من شدة ما أعانيه وألقاه في دنيا البشر • فلقد سلط علي أشرار الحي كل فتاة حسناء اصابها الحمق والسفه وراحت تعيش عيشة الغانيات في سحر الليل ، لقد وصل الامر الى أن يدخلن على أمي بحجة السلام عليها حتى اذا ذهبت لبعض حاجتها كلمنني

بالحب والعشق في سفه وحمق وعبارات تثير السخرية الصماء · وكنت أحاول جاهدا أن أمسك نفسي وأصون ديني وعرضي ، فمرضت مرض العاشق الولهان وماكنت لاستطيع البوح بما في نفسي ، وأنا الذي رفضت الزواج ثم احتاط للامر فآتي بيتنا من زقاق بعيد لا أرى فيه مضايقة الفتيات ولا همس الظبيات · وأذكر ان احدى الفتيات السفيهات لما لم اكلمها وأنظر اليها ، وهي تكلمني عن الحب وأهله غضبت وقالت : ساريك في المستقبل كيف تهينني اهانة ما أهانتنيها أحد وأنا ملكة الجمال ·

المحنة الاولى

وتلفني أحداث هذا الزمان بالاسى والحزن وتتوالى علي مصائبه وقد أضنت جسمي فصرت كالشبح في صحراء التيه ولكني كنت أعيش مع أمي حياة لا اكدرها فيها ولا أبث لها شكواي ، فما تنفع الشكوى رجلا ليس له من المال ما يكفيه للزواج ، وقد ابتلاه الله ، فعليه الصبر على الخطوب وكم أوصاني الشيخ بالصبر على مر الحياة ، وعند ذاك عرفت الصبر وما يحتمله المؤمن في الحياة ، ولم يقف الامر عند هذا الحد لقد جلس الفساق من الشباب فتدارسوا في وسيلة يؤذونني فيها ويلوثوا سمعتي ، وأنا الطاهر العفيف · ففي يوم من الايام ذهبت الى سهل قريب بعد صلاة العصر وعندما بدت شمس الاصيل فقلت راجعا الى البيت ، وما ان انحدرت من السهل الى الوادي حتى رأيت امرأة في شبابها وحسنها تقترب مني وتخاطبني : يا حبيبي أما يكفي هذا العذاب ، ان جمالك أذهب عقلي أريد منك قبلة أشفى بها غلتي

وتهدىء شوقي . فابتعدت عنها وهي تلاحقني وتمسك بأطراف ثوبي وتنازعني ، فدفعتها في غضبة شديدة وصحت بها : يا شيطانة اليك عني ، غرى غيرى . وفي هذا المشهد من مأساتي يأتي ثلاثة من الشبان من فجار حيّنا يهتفون : ما هذا الحب وما ذاك العشق ؟ وما هذا الجمال ؟ وأين دعوى الايمان والصلاة ؟ هذا هو شأن الشاب الذي يتظاهر لنا بنسكه وعبادته يواعد المرأة سرا ؟ فاقسمت لهم بالله اني لبرىء وانها فاجأتني . وهي تقول كاذبة : لا . هو الذي واعدني وغررني ويرفض زواجي ، لقد واعدني مرات على سفح هذا الجبل ، فكان ناقضا للعهد رافضا للوعد . وكان ذلك الموقف من أحرج المواقف في حياتي حين دخل الحي هؤلاء الخبثاء وأشاعوا الفرية في كل مكان ، بل وصل الامر الى ان تذهب البنت مع بعضهم الى أمي تقص عليها القصة المفتراة والكذب المبين . وآتي البيت وألقي بنفسي مع جهد العناء على الفراش من شدة المرض الذي أصابني جراء المأساة ، ولم تكلمني أمي حين دخلت ، ورأيت في نفسها كظما للغيظ وعلامة للغضب . ونمت تلك الليلة عليلا ، فلم أذق الطعام أو الشراب . فلما كان الصباح صليت وأنا أحمل نفسي عليها ، ثم نمت فاستيقظت ضحى ، فدعتني أمي الى الطعام فشربت شيئا من الحليب وأكلت قليلا من الخبز . فلما ألحت علي أجبتها : لا أشتهي الطعام يا أماه وأنا عليل كما ترين . فقالت لي أمي : حين ذاك ما مقالة بلغتني عنك ، ألم أعرض عليك الزواج وخيرتك جواهر النساء وغيد الحسان فما رضيت ثم تواعد سرا فتاة رعناء

من اراذل النساء ، فلقد والله هتكت عرضنا وشوهت سمعتنا • ماذا نفعل بعد الذي سمعناه ؟ وقد شفيت بنا الاعداء وأنبتّنا الاقرباء ، فلقد والله حرت بالجواب وأنت الذي آمل فيك أن تكون جوهرة العشيرة وعاقلها وعارفها فبقيت أصغي الى القول ، والالم قد أحاطني وغمر جسمي حتى ثقل علي الكلام فتحاملت وقلت لها والدمع أذرفه بدم الحزن والاسى : أماه لقد عانيت ما عانيت وعرضت عليك أمر العزلة عن هؤلاء الناس ولو لزمن فأبيتِ علي ذلك اباء تعلمينه ولقد أوذيت كثيرا من الفساق وسفه بعض الفتيات ما كتمته عنك حتى لا أنغص عليك حياة الهناء وما حدثوك عني فرية افتروها علي وخطة اختطوها لي كي يلوثوا سمعة شاب مؤمن ، ويشهد الله أنه لم يلوثها بفاحشة طيلة حياته • فأمروا تلك السفيهة ان تنتظرني حين نزولي من سفح الجبل وأنا أتفكر في خلق الله وفي سماواته وأرضه لتفاجأني بكلمات معلومة وتقترب مني وأنا ادافعها حتى جاء ثلاثة من الشباب المراهقين الفجار ليشهدوا تلك المأساة مأساة شاب مؤمن عفيف تبتليه عاديات الزمن ليطعن في عرضه ودينه • والله لن أقول الا أن الله شهيد على ما أقول • فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون •

لقد رمتني احدى الفتيات من الجيران حين أعرضت عنها ـ عن سفهها وثرثرتها وما أبدت لي من حديث المجون ـ رمتني بسكين حقدا وغيرة كيف لا ارد عليها وهي الحسناء المدلهة ملكة الجمال كما تسمي نفسها في الحي ووقاني الله شرها حين وقعت على فخذي واخطأت

صدري وسال الدم مني ولم أحدثك كما لم أحدث أحدا، وكشف عن ساقه ليريها الضربة الحمقاء ولا يزال الجرح عميقا لم يلتئم فتصيح الام عند رؤيتها هذا الجـــرح العظيم : وافجيعتاه أكل هذا حل بك يا بني وأنـــا لا أدري ؟ وتصرخ باكية بدموع الاسى على المأساة ، مأساة ابنها البار الطاهر الذي مزقت عواطفه السنون وامتحنته وهو في ريعان شبابه وفي سن لا يستطيع مثله على تحمل ذلك وهو صابر محتسب في همة عالية لا يستجيب لنداء شياطين الانس وهم يوسعونه أئتمارا واستهزاء واشاعة. رباه نسألك الستر والعفو والعافية .. رباه ضاقـــت بنا الحال وأحاط بنا الاعداء وصدقهم في القرية الاقرباء - حسبي الله ونعم الوكيل من كل أولئك الذين أرادوا بنا سوءا .

وتعود الام الى الابن تربت على كتفه وتقول له : لا تيأس ، واثبت على ايمانك بالله وتمسك بدينك وحرصك على الاخلاق الفاضلة ، فلك في الانبياء والصالحين عبرة وقدوة ، فقد افترى عليهم الكافرون كل سوء وشناعـــة ولكن الله نصرهم وكشف كذب أعدائهم . وأنت قـــد لجأت الى الله ولن يخيب الله عبدا أناب اليه ورجاه .

وبينما هم في ألم المأساة والسكون قد خيم عليهم اذ بطارق يطرق الباب . انه الشيخ الصالح يسأل عـــن الشاب لم تاخر البارحة عن جلسة ليلة الجمعة فيدخل البيت ويجلس الى الشاب يسأله وهو يخفي كل هموم الحياة وحياة الخطوب ويحاول بكل همة اخراج ابتسامة استقبال وترحيب ، ويرد الشاب على الشيخ بقوله : لقد

كنت مريضا البارحة فلم أستطع الحضور الى مجلسه الطيب الذي لم أتأخر عنه أبدا في حياتي • ولقد كان الشيخ كيسا حين أخذ يحادث الشباب وهو قد علم الخبر وسمعه بألم فقد انتشر في كل الحي وجاءه المنافقون يقولون له : أهذه ثمرة تربيتك ودروسك ؟ أهذا هو مسلك الشباب المؤمن ، يتظاهرون بالدين ويعملون ما لا يرضى من القول والعمل ؟ فأجابهم الشيخ: ان هذا الشاب تقي ورع متدين في أعماق قلبه ، لم يظهر منه سوء فلا أصدق ما تقولون فلعل في الامر سرا ، انكم تفترون عليه الكذب وتنقمون عليه لايمانه فقط ، ولو كان صاحب فجور وكفر وسوء خلق لرفعتموه الى السماء • وهكذا يُبتلى المؤمن في هذا الزمان حتى يسلم عرضه وهو بريء بالله ، ما أعظم ان يكون الشاب مؤمنا في هذه المجتمعات لكأنه يحمل الجبل على عاهله أو يمسك بالجمر في راحتيه ويوجه كلامه الى الشباب عنده : اخواني لا تصدقوا ما يقوله هؤلاء ولا يصيبكم اليأس ولا تقعدكم الافتراءات ، فكونوا على ايمان صادق وعزيمة عظيمة وعمل صالح واجهروا بايمانكم وادعوا الى الله بحسن خلق وبيان لين ، فلعل الله يهدي بكم قوما ضلوا وأضلوا • لقد كان الشيخ يحدث الشاب عن المحن والفتن وكأنه يعيد له حديث البارحة حيث قال له : انك لم تسمع حديثي البارحة عما يبتلي المؤمن لان الابتلاء صفة من صفات المؤمنين ، فمن لم يبتل فليراجع ايمانه ومن لم يصبر على البلاء فليراجع ايمانه فان الصبر صفة لازمة للمؤمن الذي عرف ربه وعَبده عن علم لا عن جهل ، والمؤمن يفرح دائما عندما

يفوز في الامتحان والاختبار · وأما ما يقوله المنافقـــون والفساق فلا وزن له في ميزان العقل والعلم ، ولقد حل ما يقوله الشيخ في نفسه كما يفعل الماء البارد في اطفاء جذوة نار متأججة فترتاح نفسه ويأخذ باطـلاق نَفَس طويل يخفيه في الاعماق · فعند ذاك يقبل الشيخ يكلمه قليلا ويسأله ولكن كيف يستطيع المؤمن ان يصبـــر ويتحمل ، وما عدته ؟ فيقول له الشيخ : عدته الايمان بالله والعمل الصالح والانابة الى الله والاستجارة بـــه والاستعانة به فانه خير مستعان وهو الله كاف عبـــده وحاميه ·

ظهـــور الفريـــة

وتمضي من الايام ثلاثة وبينمـــا كـان الشـــاب يجلس مع أمه بعد العصر يشربان الشاي اذا بطارق عنيف وسريع ، وتخرج الام مسرعة وبلهف فتفتح البـاب واذا بامرأة من الجيران تدعوها الى أحد البيوت ولم تكلمها عما تريد فما ان دخلت البيت حتى رات فتاة قد أصابها المرض الشديد حتى جعلها شبحا من الاشباح فتجلس بجانبها تحييها وتدعو لها بالشفاء ولم تميزها بعد · فاذا بالفتاة تتحامل على نفسها وتقول : يا عمتاه أنا فلانة التي تكلمت عن ابنك ما سمعه الحي بأجمعه فأريد الآن وانا كما ترين أقول الحقيقة لقد عشقك ابنك عشقـــا أضناني ، وتوسلت بكل وسيلة لوصاله وهو يأبى علي ويشيح بوجهه عني عفة وطهرا · فلما لم أحظ بشـــيء كلمني ثلاثة من الجيران أن أنتقم منه بما حصل · فوالله لقد جئته واختفيت عنه خلف صخرة قبل نزوله من سفح

أعدل حكم الله ، وأما أنا فاقاسي الان من المـــــرض والمأساة ٠
ولقد جلست أمي بعدما أصابني ٠ وطلبت منها ان توافقني على أن أتخذ لي صومعة على سفح الجبل القريب من قريتنا أرتادها وأتعبد فيها حيث لا يؤثر علي ضجيج الناس ولا تعرضهم أو ائتمارهم بي كما فعلوا فخيبهـم الله ولكني لا أدري ما يخفي لي القدر ولكن الذي أحرقته ثقتي بالله وايماني العميق وهمتي العالية ٠ فوافقت أمي على ذلك حيث أني قريب منها غير بعيد ، وكنت أتعبـــد عبادة قد أطيل فيها بل قد يكون ذلك في تطرف فـــاذا انغمرت في عبادتي فلا يلويني عنها شيء حتى ولو كانت أمي ، ولقد جاءتني أمي لثلاثة أيام وهي تناديني تريد الجبل وهو يقول : رباه ما أعظمك وأجل قدرتك خلقت الشمس والقمر والكواكب في نظام يعجز البشر عن وصفه ، وخلقت الارض وفجرت الانهار وأنبت من كـــل زوج بهيج ، لا اله الا أنت لا حول الا بك ولا شريك لك،اللهم أنت وليي في الدنيا والاخرة توفني مسلما وألحقنــــي بالصالحين فما أن أنهى دعاءه حتى فجأته في الوادي فاصفر وجهه وخارت قواه فكلمته بعبارات ارتجف عند سماعها ورجاني أن أتركه وهو يدفعني وجاء الثلاثة حسب الخطة فأنّبوه وأهانوه بكلمات وهو يقول : والله اني بريء ، والله اني بريء ٠ وأنا الان حيث لا ادري أشفى مـــن مرضي أم هو مرض الموت يفجأني ، ارجو ان يغفر لـــي خطاياى وأن تسامحيني أنت لقاء ما روعتك ، ولقد والله شهدت حكم الله في أحد الشباب حين داسته فرس هائجة فكسرت رجله وهو الان يعالجها ، فقلت في نفسي : مـــا

الرجوع الى البيت لمؤانستها والعودة الى صومعتي فيعبادتي وكنت في المرات التي جاءتني فيها منشغلا بعبادة الله عزوجل فلن أنسى تلك الايام حيث حرت حيرة عظيمة فأنا بين أمرين العبادة لربي ونشوتها والاستجابة لامي وطاعتها ، فنظرت في الامرين واجتهدت في الطاعتين فمضيت في العبادة حتى انتهيت منها وعدت الى أمي مسرعا ودخلت البيت فقلت لها : لبيك يا أماه لقد كنت في العبادة فلم استطع اجابتك فلم ترد علي ولم تجبني حتى ولو بكلمة تقريع وتأنيب ولكني سمعتها وليتها لم تقل ولم أسمعها (اللهم اره وجوه العاهرات) وكأنها رأت أن الله ابتلاني بالسفيهات من قبل ، فكانت لي محنة عظيمة فتريد أن يبتليني الله بالعاهرات ٠٠ يالله ما أحكمك تاتيني السهام الان من أعز الناس علي من أمي ، لقد كان بوسعي أن ألبي ثم أعود الى العبادة ، فأقبلت عليها أقبل رأسها ويديها في حزن وبكاء وانكفأت على رجليها أقبلها وأطلب العفو منها وأرجو رضاها فلم تدع الا بما ذكرت ولم تتنازل عنه رغم اني فعلت كل ما يرضيها ، وتوسلت بكل وسيلة ولكن دون جدوى ٠ فقد ارتفع الدعاء الى السماء ودعوة الام مستجابة والشكوى بلغت رب السماء ، والله أعلم بما قدر ويقدر وينتهي أمر الغضب بما كان وصار في طي النسيان ، تعود أمي كعادة الامهات تحنو علي وتعيش هي دون حزن أو كدر وتتذكر أمي حكايتها على الزواج فتثيرها ثانية ويبدو الكلام عن الصاحبة التي تصلح لي في حياتي وتكون لي عونا في الإستمرار على نهجي في طاعة الله وتتوارد الاسماء ٠٠٠ وفلانة وفلانة ـ ابنة عمك ـ ابنة خالك ، ولكني رفضت

جميع هذه العروض لما كنت أعلم ان ما ارغبه في أن يكون في زوجتي المختارة من صفات لا يتوفر في واحدة منهن . لقد كنت صريحا مع أمي في هذا الموضوع صراحة المؤمن فاني أريد المرأة التي تكون عنصرا فعالا في تنشأة الجيل المؤمن بالله ودعوة الاخرين الى الايمان والخير ، لا أن تكون بحاجة الى جهد في اصلاحها أو ان تكون سببا في ضياع جهودي في ايجاد البيت المؤمن والاسرة الصالحة ، وما ان ذكرت لها ذلك حتى قالت : لعل الله يرزقك الزوجة الصالحة يا بني .

أول المأساة

وأعود الى الصومعة بعد رضا الام وهدوئها واستئذانها وما أن خرجت من البيت وتواريت قليلا عن بيوت القرية حتى سمعت صوتا غريبا من بين الاشجار الكثيفة ما لبث ان صار قريبا مني واذا بامرأة لها من الحسن والجمال ما يذهب العقل ويأسره تناديني : أيها الحبيب لقد عشقتك حتى صرت مولهة ، بل أكاد افقد عقلي وأنت شاب في جمال ما اصطفاه الله الا للقليل ، تريد أن تضيع نفسك في عبادة وصومعة ، فدع مثل هذا للشيوخ وتعال نقض حلو العمر من همسات الحب ولثم الشفاه ورشف الكأس . فما خلقت بجمالك الساحر الا لهذا . واذا ما بلغت مبلغ الرجال الكبار فعليك بالتوبة الصادقة والعبادة الدائمة فكل لما خلق له ، وأنا كذلك احذو حذوك وأسير سيرتك وأتوب توبة لا أعود بعدها الى ما كنت عليه والله غفار الذنوب . وأطرق وأغض البصر خوفا من شراك هو والله قوي عظيم ، وأقول لها : يا أختاه أنا شاب رضي لنفسه ما ترين فدعيني وما أنا عليه ولا

تنغصي علي عبادتي وحياتي • وما ان رأت مني اني شحت عنها وجرحت كبرياءها ولم آبه بحسنها وجمالها حتى لطمتني لطمة أفزعتني وأرادت أن تمسك بي فانفلت منها بسرعة وركضت بهمة فواريت نفسي عنها وسمعتها وهي تقول : سيأتي اليوم الذي انتقم فيه منك • فقلت في نفسي : سبحان الله حمدا لك يارب ، لا ادري متى تنتهي سلسلة المآسي والمحن ، وتولى عني صور الابتلاء والاختبار ••؟

فذهبت الى الصومعة من طريق غير الذي كنت أسلكه وانصرفت الى عبادتي بنشوة الانتصار • وسألت الله حسن الخاتمة في هذه الدار • ومضى علي شهر شهدت فيه كل هناء فمن عبادة صادقة مع الله في السماء الى شدو الاطيار في الغناء الى الكون كله يسبح لبارئه في صفاء • وفي يوم من أيام الربيع حيث يظهر كل حسن وبهاء ويخرج الناس فرحين بالجو المنعش هواؤه والماء الصافي زلاله والشجر ينشر ظلاله واذا بي حين رحل الناس الى البيوت بعد مرج بهيج ، أسمع طرق باب الصومعة فظننته ذلك الرجل الفقير الذي كان يطلب مني الطعام فأعطيه أو الشراب فأسقيه فقلت : أدخل • فلما ان فتح الباب حتى رأيت ما سيهديني الى المصاب ويفقدني الصواب واذا بالمرأة الحسناء التي لطمتني قد برّت بيمينها ووفت بوعيدها ، فقالت لي : الان ماذا تقول والناس قد ذهبوا قبل الافول فدع الملام وارحم فتاة ظلت تناجيك حتى أصابها الذهول وذبل جسمها حتى صار شبحا من أشباح الهول ورضيت وهي ملكة الجمال

ان ترمي بنفسها وبجمالها تحت أمرك وخدمتك والليل أوشك على القدوم وما يدري أحد ما رمت وما تروم اليه فلج قلبي بالدعاء وقد أصابني الوجوم فانشدتني تقول :

أجريج اني قد فقدت صوابي
فأنقذ معذبة الفؤاد تنادي
ان كنت تبغى أن تكون بعزة
فانشد جمالا قد أتى بتماد
والله قد خص العباد بطابع
يخطي ويذنب باطنا او بادي
والتوبة الكبرى تراءت دائما
فالله غفار ذنوب عباد

★ ★ ★

فتطلع الصب الوقور بنظرة
ورأى جمال الورس في آزاد
وتقاطرت من وجنتيه مدامع
يبكي الرزية في خلائق عاد
اني ظننتك ظبية ظمآنة
فالماء عندي والرقائق زاد

★ ★ ★

فتبسمت والنحر يبدي فضة
والوجنتان تزيد من اسهاد
قالت مرادي لم يكن قطر الندى
فالقلب عطشان للثمة حاد

تضفي علي حنانها وشفاءهـــــا
وتضمني كالعاشق المرتـــــاد

★ ★ ★

فبقيت حيران الفـؤاد متيمـــا
أهوى الحســـان واننا في وادي
ويرد لي قلبي بقول حاســـم
أين الفضيلة في هوى الزهـــاد
فاصبر على مر الصبية انهـــا
بعض البلايا في طريق رشـاد

★ ★ ★

فالله لم يترك ليوســف محنة
قد برأته بعد سوء فســـاد
وغدا أميرا بعد سجن ظالـــم
والناس في نقر وفي تـــرداد

★ ★ ★

فقلت لها : يا أختاه ما أنا الذي يرد هذه الموارد وما اقترفت طيلة عمري فاحشة ولئن ابتليت فهذا قدر الله فاليك عني . فاحمر وجهها واشتد غضبها وأقبلت علي فقالت : ماذا تقول ؟ هل يمكنك أن تفلت مني كما فعلت . وأمسكت بيدي وهي تقول : لئن لم تجبني لاضربنك ضربا يذهب بكل ما حباك الله من جمال . وصرت عندها فـــي حالة تمنيت أن لم أر هذه الصومعة من قبل ، فأكون فريدا وثارت في نفسي الحمية وأجمعت قواي فقلت : لله لتخرجن أو لاحطمنك . فنظرت الي بحسرة ، فدفعتها بكل قـــوة وضربتها ضربا موجعا ، فصارت تبكي بكاء الصبي في توسل

وهي تقول : كفى كفى . لن يذهب ذلك سـدى والله لاوقعنك بما لا تستطيع دفعه . ثم انصرفت عني . فحمدت الله تعالى على ذلك وبقيت أردد قولتها لاوقعنك . رباه أنت وليي في الدنيا والاخرة . ورجعت الى البيت ثم عاودت الذهاب الى الصومعة للعبادة وبقيت حريصا على أن أشهد درس الشيخ الصالح ليلة الجمعة . وقد رأيته هذه الليلة في هم وحزن . فما ان انتهي الدرس حتى رجاني أن أبقى قليلا عنده ، فحدثني حديثا غريبا . قال لي : يابني أتدري ذلك الراعي الذي كنت أعاتبه وأحاسبه ، لقد فعل البارحة ما لم أتوقعه . لقد فقدت منا شاة حين رجوعه لا ادري ما الذي أشغله . ولما أقبل علينا ليخبرنا وجدته في حالة من الذهول عجيبة . سألته عن الخبر وعدد الغنم قليل ، فلم حصل مثل هذا ؟ بل لماذا تأخرت على غير عادتك ؟ فأجابني انني مقصر ، لا . لا . بل انني مجرم وانها والله السبب اني والله بريء . لعن الله الشيطان ـ الشيطان ـ الشيطان وأخذ يردد ذلك كالمجنون . ولما سألته من هي التـي تذكرها ؟ أجابني : لا انني حزين لما حصل . انني أهذي كالمعتوه . سامحني ، لا . بل اعفني عن رعي غنمك . فلست أمينا ، ثم انفجر في البكاء وابتدر يعض بيديه بألم وحزن : يا ليتني لم ارها ولم أفعل ما فعلته . قال ذلك وقد كنت دخلت البيت فسمعت ذلك منه وأنا في طريقـي اليه أعطيه أجره . يابني لا ادري أي جريمة ارتكب هـذا وأي معصية أصابته ، سامح الله ذلك الرجل وغفر له ، واني والله أبحث الان عن راع اخر . فقد علمت صبـاح هذا اليوم انه اتفق مع أحد الجيران ليرعى غنمه بحجة أن

الاجر الذي أعطيه قليل لا يكفيه • فشرد ذهني قليلا وقلت في نفسي : ان بعض الظن اثم • لعل تلك الحسناء الخبيثة أوقعته فيما كانت تريد ايقاعي فيه فنجاني الله منها ولكن هذا قد يكون وهما لي ولهذا وقانا الله شر البلايا • فقلت له : عماه لعل الله يعوضك عنه براع أمين حريص • ثم استأذنته وانصرفت •

ولم تمض الا أيام وأربعة شهور من محنتي مع تلك المرأة في الصومعة الا وبلغني ان حاكم البلدة وقد كـــان عادلا يعاقب المجرمين من السراق والقتلة والمحتالـــــين والزناة • بلغني وشاع ذلك في البلدة ان تلك المرأة قد قبض عليها وهي رهن التحقيق ينتظرون ان تضع حملها ثم يحقق معها في الجريمة النكراء التي ارتكبتها • فقلـــت : سبحان الله •• أرادت بي سوء فوقاني الله شرها • وفي يوم من الايام طلب حضوري عمي الشيخ الصالح فجلست اليه فقال لي : أسمعت ماحدث ؟ قلت : نعم • قـــال : أتدري ان ذلك الراعي بعد ما شاع أمر هذه المرأة تـــرك العمل مع جارنا الى قرية مجاورة يعمل هناك •• عجيب ولكن لا نقول الا ما يرضي الله • ويمضي شهر من الزمن واذا بي أرى الراعي الذي كان يرعى غنم الشيخ الصالح يسلم علي بحرارة • ثم يقول : رايت هذه المرأة الخبيثة تريد الصاق التهم بالناس وعجبت كثيرا أنها تقول : ان لي علاقة خاصة بالعابد الذي في الصومعة فلان فكنت أقضي معه ليالي الفجور والفحشاء وأنه هو الذي زنى بي فكان لي منه هذا الحمل • فقلت له في حدة وغضب : من قال هذا ؟ قال : أنا سمعتها • قالت حين رأيتها خلسة بعد

القاء القبض عليها ، لكني والله أقسمت عليها أن لا تذكرك بسوء لكنها أصرت. وأنت ماذا تقول؟«من صاحب الجريمة؟» لا ادري لعل هناك شخصا اخر ولكني أريد أن أسألـــك سؤالا متى عرفتها ؟ ولم رأيتها خلسة حتى تخبرك بهذا ؟ وأنت غريب عنها فاصفر وجهه وتردد في القول : لقـــد عرفتها حين كانت تشتري اللبن من بيت الشيخ الطيب ولكن لماذا أصررت على رؤيتها ؟ وما علاقتك بالموضوع ؟ لا علاقة لي والله انها كاذبة وأردت أن أحذرك . ولكن حذر نفسك واتق الله فيما تقول . وعدت الى البيت وأنا في غم عظيم. ماذا أفعل لو وقع مثل هذا اذا هي اعترفت علي ؟ تـرى هل أهرب من البلاد كلها الى بلاد أخرى ، بلغني أن أهلها أهل خير وكرم وحسن خلق ودين ؟ ولكن ماذا بعد اقرارها وشيوع الامر فسيكون ذلك عارا لي في حضوري وغيابي ؟ رباه أنقذني مما أنا فيه .. وأقع في المرض وأمتنع عـــن الذهاب الى الصومعة بسببه وتمرضني أمي وتسألني : يا بني ما الذي يؤلمك فأجيبها مرضي ما ترينه والفـــؤاد معذب بما أصابه وتقدم لي عسلا مصفى ، وتقول لي : هو والله شفاء فقد وصلت الى الحال الذي لم استطع فيها حتى تناول العسل . ومن بعد أسابيع برئت من مرضي بسبب ما ألم بي وعدت الى الصومعة .

« امام القضاء »

ومـــا ان وضعت المـــرأة حملهـــا فكـــان صبيا حتى استجوبها القضـــاء فقالـــت : ان فـــلانا في الصومعة هو الذي زنى بي فكان هذا الصبي . فقالـــت هامسة : لانفذ ما أوعدته ولاعذبنه لقاء امتناعه مني وعدم تلبية رغبتي ، هذا جزاؤك . ولقد سمع أحد القضاة بعض

همساتها : فقال لها : ماذا تقولين عن هذا الذي تريدين عذابه وذاك الوعيد لعلك تريدين أن تستدركي على ما قلت فقالت : لا ٠ لا٠ هذا هو العدو اللدود الذي فعل هذه الفعلة الشنعاء ٠٠ فعجب القضاة من هذا الخبر ٠ وقالوا : هذا شاب صالح لا يقارف مثل هذا الذنب ولقد علمنا كيف أن الفتيات يعاكسنه وهو يجتنبهن فما علمنا عليه من سوء ٠ ورفعوا الامر الى الحاكم فكان عجبه أشد فأمر القضاة أن يعيدوا السؤال عليها فجاءوها وقالوا لها : أيتها المرأة انك اتهمت شابا عابدا صالحا ما علمت البلدة عليه من سوء فلعلك واهمة ٠٠ لا٠لا٠ لست واهمة ٠ وقد رأى أحد القضاة رجلا يكلمها خلسة ويشير اليها باشارات ٠ فأمر القاضي أحد رجال الشرطة بمراقبته وسماع حديثه واحضاره الى هيئة التحقيق ٠ فلما راقبه عن جنب سمعه يقول لها : لا تغيري اقرارك والا ذبحتك وسأقدم لك كل ما تطلبين وما أن أراد الحارس الامساك به هرب بعيدا فأفاد الحارس بما سمع ٠ فقيل لها : من هذا الرجل الذي كلمك ويقول لك هذا القول ؟ قالت : لا اعرفه لعله من مجانين المدينة ٠ فظلت مصرة على رأيها ٠ فاضطر القضاة لتنفيذ ذلك فأمرت قوة الحرس باحضاره وهدم صومعته التي غش الناس بها !! فكأنهم صاروا على يقين من اني فعلت هذه الفعلة ٠ وبينما أنا في عبادتي اذا بصوت من الهرج والمرج حيث أن الناس تبعوا الحرس في مسيرتهم ٠ فما أن بلغوا الصومعة حتى فتحوها من غير استئذان وقالوا : اخرج يا كذاب ، يا منافق ، تريد أن تغش الناس بعبادتك وصلاتك ٠ فبينما كان بعضهم يهدم الصومعة امسك بي الآخرون وقيدوني وهم يكيلون لي الشتائم

مما سمعت ومما لم أسمع . وأنا أقول : أنا والله بريء أنا والله بريء ـ ورفعت بصري الى السماء حيث قيدت يداي بالحديد . وقلت : رباه لقد انجيتني من مصائب عظيمة وأنا عبدك الشاب المؤمن .. اليك وحدك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، اللهم رحمتك نجني من القوم الظالمين . وليت من يقرأ قصتي ممن حضر هذا المشهد الرهيب المهيمن يرشقني الناس بالحجارة وغيرها . ويرددون : أهؤلاء هم الداعون الى الله يرتكبون الفواحش ؟ أين دعوتهم الى الله ، الى الفضيلة ، الى الاخلاق ؟ ولم يكن مني الا قلب يخفق ، وعين تدمع ، ولسان صامت الا عن ذكر الله وطلب العدل منه وحده ، وبينما أنا أسير في الطريق الى ساحة المحكمة وهيئة التحقيق اذا بعمي الشيخ الصالح الذي رباني والله شهيد على ذلك ـعلى العفة والطهر والصدقـ يبصرني فتأخذه حالة من الذهول والروعة والحزن ويهتف بهم ما لكم وهذا الشاب الصالح فيدتموه ؟ فيهتف كل الرعاع مع الحرس : دع عنك هذا ، هذا فاعل الفاحشة ، هذا زان ، أهكذا كانت تربيتكم ؟ أهذه ثمرة دعوتكم ؟ أهذا هو جوهرة المجموعة كما كنت تسميه .. فيجيب الشيخ وأنا اسمعه وأنظر اليه : كذابون أفاكون ، والله ما فعل فاحشة ، والله انها لفرية ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون. وأودع السجن رهن التحقيق . فيسألني أحدهم أأنت فعلت الفاحشة بهذه ؟ وقالت بعد أن رأته : نعم هو هذا . فقلت له : والله ما فعلت فاحشة أو سوء ولقد راودتني عن نفسها مرتين كان اخرها يوم الخميس حين رأتني

وحيدا في الصومعة ، ولكن الله اعانني عليها وطردتهــــ
وحينما سمعتها تقول : والله لاوقعنك بالحيلة التي فيهـ
الخلاص منك • وانصرفت وعدت الى بيتي واني والله وان
كنت فيما انا عليه من المهانة وانتظار العقوبة فلا أتهـــم
أحدا ولكن أقول لكم ما سمعته وما رأيته • ولقد جاءنـــي
الراعي (فلان) عند أخذ هذه المرأة للتحقيق • وقال لي :
أتدري يا فلان ان المرأة التي ألقي القبض عليها تقول أن
الذي فعل ذلك هو أنت ؟ فقلت له : ما علاقتك بها وكيف
سمعتها ولم •• ؟ فقال : لا علاقة لي بها ولكني رأيتهـــا
خلسة وسمعتها وكررت السؤال عليه ، وما الذي الجأك
الى أن تراها خلسة وأنت اجنبي فريب عنها ؟ فلم يجب
وانصرف • فيا حضرات القضاة كيف تعتبرون اقرار الغير
علي سببا في اتهامي دون بينة وقد أوضحت لكم كــــل
ماحدث • فتتذكر أحد القضاة • فقال : لقد أفاد الحارس
بأن رجلا له صفة كذا وكذا قد كلم المجرمة خلسة يحذرها
تغيير الافادة ويعدها بالمال ان هي أطاعته فأرجو مـــــن
حضرات القضاة احضاره واستجوابه لعل في ذلك سببا في
براءة المتهم • ويرد أحد القضاة انه لا حاجة لنا بهـذا •
فقلت له : أيها الحامي للعدل المحافظ على القانون والحقوق
ان قضيتي تستوجب مثل هذا ، فأرجو من السيد رئيس
القضاة الامر باحضاره وأخذ افادته وهنا يوافق الرئيس
على احضاره لهذا الغرض ويبدأ السؤال عن محل اقامته
فتفيد التحقيقات الاولية في البلدة انه غادر بعد القـــاء
القبض على المجرمة الى القرية المجاورة فأمر باحضاره فورا•
وتبحث ادارة الشرطة عنه في القرية دون جدوى حتى اذا

كان صباح يوم من الايام عثر عليه شرطي في قمة أحد الجبال وأتت به الشرطة واذا به يقول قبل أن يحضر للتحقيق انها كذابة تفتري علي لست الذي فعلت هذا . الا لعنة الله على الشيطان لقد وقعت بيد القضاء . وفي الظهر يحضر القاضي للتحقيق مع الراعي . فسأله القاضي : ما علاقتك بهذه المرأة ؟ فيجيب والله انها كذابة. فيقول له : في أي شيء ؟ فيقول في اتهامي . فيعجب القاضي لمثل هذا القول ويطلب اجتماع هيئة القضاة لسماع افادة المتهم وفي الوقت الذي ينصرف القاضي لابلاغ رئيس القضاة عن افادة المتهم يدخل أحد الحراس الغرفة ليخبر الراعي بأنه لا تهمة عليه فلا يعترف بأي شيء . واذا تكلم فلينكر ما قال : لقد اعطت المرأة الحارس مبلغا من المال لتنفيذ ما ترغب فيه فقد كان هذا الحارس سببا في هروب الراعي حين أرادوا القبض عليه . وهو يكلم المجرمة في سجنها وهو الذي أبلغه بأن الشرطة تريد القبض عليه فاذا بالمتهم بعد حضور هيئة القضاة يسألونه فيجيب : لا . لم أقل هذا ، لقد كنت خائفا مرتعبا أخشى أن يقع بي الاذى ، فقلت مثل هذا القول : لا علاقة لي بها سوى أنها كانت تشتري اللبن من بيت عمي أبو ابراهيم ، وأنا راع عنده وهنا أسقط في يد القاضي والهيئة فقرروا استجوابها عن هذا الرجل فقالت اني اشتريت اللبن من بيت أبي ابراهيم، فعرفته فقط ، ولم تكن لي أية علاقة بهذا الرجل فقررت الهيئة الافراج عنه . والرجوع بالامر الى ذلك الشاب العابد ، الي أنا الذي رحت ضحية الافتراء والرشوة والكذب . أما أمي التي سمعت

بما حدث لي فلم ترقأ لها عين ولم تنم من الليل الطويل الا قليلا وقد استنجدت بأقاربي وأصدقائي فكان بعض ضعاف النفوس ممن لا ذمة لهم ولا دين يقولون لها : ماذا نستطيع أن نفعل لابنك وهو يزني بالنساء ويدعي أنه المؤمن الطاهر العفيف · فتاخذ بالبكاء الشديد وهي تقول : رباه ليس لي الا هذا الشاب المؤمن الذي عرفته يذرف الدموع خوفا من عذابك ويطلب رضاك ومغفرتك فوالله ما علمته يدنس عرضا أو يقع في فاحشة ، فرج عنا يارب الكرب الذى نحن فيه فلقد طرقت بابك فلا تخيبني ·· فاذا بها تصمت وتسكت وتفكر وتذهل ثم تقول : ألست الذي دعوت عليه بالدعاء ؟ لقد والله حقق الله ما دعوت ثم ترجع الى ما كانت عليه من الهم والحزن وفي غمرة هذه المأساة والقضية وما تلوكه الالسن وما يتعرض له أصحابي الذي كنت أجالسهم ننهل العلم والادب ونتدارس معاني الايمان من الشتائم والاهانات مما جعلهم في انتكاسة حتى أن البعض لم يكن يحضر جلسة ليلة الجمعة والبعض الاخر منعهم أهلوهم من حضورها أو اللقاء بالشيخ الصالح لكن الاخرين اصروا على الحضور وقالوا لاهليهم ولاقاربهم انا والله لعلى حق وان أخانا قد ابتلى فلعل الله ينجيه من هذا الكرب العظيم ومجرد افتراء هذه الدنيئة لا يشكل جرما ·

الشيخ الصالح والصبر

وأذكر وانني في محنتي ، مادعت أمي به علي ، فأطلب من عمي الشيخ الذي كان يزورني وأنا رهين السجن ويقوي من عزيمتي ويذكرني الله وصبر الانبياء والاولياء والصالحين ، بل يذكر لي ما وقع لي مع تلك المرأة التي ابتلاها الله بالمرض الشديد فاعترفت بالائتمار علي من

قبل العشاق فقلت له : يا عماه لعلك اذا وافيت أمي أن تطلب منها أن ترضى عني وأن تطلب من الله ان يرفع الغمة عني وأن لا يؤاخذني بما دعت به علي في قولها (اللهم أره وجوه العاهرات) • فأسرع الشيخ الى بيتنا فكلمها قائلا: يا أختاه انك دعوت على ابنك الشاب بدعاء حين ناديته ولم يجبك وهو في صومعته عابدا فارضي عنه واطلبي له الصفح من الله ألا يؤاخذه بما دعوت لعل الله يرفع عن هذا الشاب المسكين ماهو عليه من الفتنة والبلاء • وتحدثني أمي في ذلك فتقول : يابني والله ما أقبل الليل حتى قمت الى الصلاة في سطح دارنا فما أن انتهيت حتى رفعت يدي الى السماء بقلب خاشع واخذتني رجفة وأنا ألح في الدعاء فمما قلت اللهم ان هذا ابني في محنته كما تعلم • اللهم اني قد رضيت عنه فارض عنه اللهم ما دعوت به عليه لا تؤاخذه بدعائي • اللهم اني أمامك ماثلة بين يديك فلا ترد دعائي ولا تخيب رجائي أنت الملاذ وأنت المستعان • وكانت - والله - يا بني - دموعي تتساقط على الارض منهمرة ثم ذهبت الى

المناجـــاة مـع الله

الفراش فنمت فوقه هانئة بعد هذا الدعاء فكأنهـــا الطمأنينة من الله بقرب النجاة • أما أنا فحين حققوا معي اخر مرة قلت لهم والله أيها القضاة المدافعون عن الحق ما عندي ما أقول الا ما ذكرت والله شهيد على ما أقول لكن لي رجاء واحد هو أن تدعوا لي فرصة أخلو بها مع ربي لعل الله يجعل لي من أمري مخرجا ، فان أملي بالله عظيم• وهو ولينا في الدنيا والاخرة • فاستجاب القضاة لطلبـــي وخلوت ساعة مع ربي أصلي وأدعو الله أن يظهر الحـــق ويزهق الباطل فرفعت يدي الى السماء وقلت : رباه اني

والله لست اسفا على جسد يعذب ولا على نفس تهان ولا على كرامة تهدر لاني قد وقفت هذا كله ـ وأنت الشهيد ـ من أجل عفوك ورضاك ولست والله بآسف على مالي الذي أغرمه ولا على بستاني الذي تؤخذ قصاصا فلقد علمت من دين الله ، ان المال ماله وانا مستخلفون فيه ولكني يارب انما اخشى على دعوتك أن تثلم بما هي براء منه وعلى دعاتك أن يشتموا وتلصق بهم التهم الكاذبة والاقاويل الباطلة ـ وأنت تعلم يارب ان الجماعة المؤمنة قلة تعيش محنة فكيف اذا أصابتهم هذه المصيبة وظلت قضيتي محل سمر الناس وسبب سخريتهم واستهزائهم . والدعوة الى الله وأنت تعلم بها انما بدأت الطريق الان غضه تحرسها عيون الشباب المسلم المؤمن الذي يعمل ليل نهار ويجاهد في سبيل الله وفي سبيل اعلاء كلمته فاللهم اهدني سبيل الرشاد وسبيل النجاة فأنت المرجى واليك الامر كله . وبعد ان دعوت بهذا الدعاء وحان وقت اللقاء بالقضاة هداني الله لامر ما كنت اصدق اني مدركة بل لم أعلم ان يكون لي مثل هذا القدر عند رب العزة رب السماوات والأرض لقد كنت أرجو ان ينطق هذه الخبيثة بالحق أو ينطق شريكها في الجرم بالحقيقة . أما ان يجعل الله تعالى لي كرامة وانا العبد الذليل الذي أطمع في مغفرته ولا أنال منزلة الاولياء الصالحين . والله لقد سرت بخطى مترددة حين طلبت من القضاة أن يتبعوني في لقاء مع الطفل الذي وضعته تلك المرأة الخبيثة فلصقته بي زورا وبهتانا ، لقد اعترض على القضاة حين طلبت ذلك قائلين : ماذا تريد من الطفل لعلك تريد قتله انتقاما أو الحاق الاذى به حقدا ؟ قلت : لا اريد

به سوء لكني اريد ان اراه لعل في لقياه خيرا • فضحك بعض القضاة بصوت عال وبسخرية : ماذا يبغي هـذا الشاب لعله خرف من شدة ما حصل له • وانتظرنا دقائق ليأتوا بالطفل وفي نفسي خواطر تجول وفي قلبي رجفة وفي عيني اشراقة الامل • لقد عشت تلك الدقائق واللحظات وكأني في حلم مجهد هل تكون النجاة بسؤال هذا الطفل الرضيع وكيف يجيب ؟ هل يريد الله تعالى اكرام الجماعة المؤمنة اكراما يدفع بهم في مسيرة الايمان وموكب النور وراية التوحيد ويخزي الكافرين والمنافقين والفاسقين أي لحظات هذه التي أعيشها وأنا انظر اليه حين أتوا به لقد رايت في عينيه علامات البشرى وآية الفوز والنجاة لقـد رايته وكأنه يقول لي : سلني أجب• بل لكأنه يهم أن يتكلم فتكون منه المبادرة وفي مشهد رائع والقضاة بين منتظر ما افعل وبين ساخر بهذا الموقف وبين مأخوذ بسحر الموقف وجلاله تقدمت قليلا الى الطفل وقد تقرب القضاة منه كما فعلت اذ طلبت منهم ذلك لقد ابتسم لي ابتسامة ابهرت هؤلاء فظن بعضهم ان ما أقرت به هذه المرأة صحيح اذ عرف الولد أباه ومال قلبه اليه • وما دروا ان الارادة الربانية ارادته شاهدا • ولم يبلغ سن الرشد بل لم يبلغ سـن التمييز • ولمست باصبعي شفتيه اداعبه اذا به يبتسم كثيرا ، ولشد ما عجبت وعجب الحاضرون معي حين رأينا الصبي يرفع يده اليمنى كأنه يشير الى النصر الذي يحققه الله للمؤمنين وهم يعيشون المحنة ، وهنا شددت العزم وقلبي مطمئن الى أن أسأله فطلبت من القضاة جميعـا القرب ونطقت بالسؤال ، ومثلي في ذلك كمثل غريق رأى جذعا من النخل سريعا فان أدركه نجا • والله أعلم بحاله •

وحين وصل الخبر الى حاكم الولاية أتى مسرعا قبل أن أوجه سؤالي الى الطفل البرىء مما ارتكبه الاثنان فقلت له : من أبوك فقال الطفل : الراعي • اني والله لا استطيع ان اصف حالتي حين نطق هذا الطفل بهذا لقد خلقني الله خلقا اخر لست أنا ذلك الشاب المعهود • وانما انا عندها نمط جديد ويقبل على حاكم الولاية وهو رجل صالح عادل فيقبل راسي ويأتي القضاة يقبلونني يطلبون مني السماح لما بدر منهم من قول ، ويجتمع القضاة ويستدعون المجرمة ويخبرونها بما حصل وما قرروه فعندها تقر وتعترف وهي تقول : لقد ضيعني هذا الشاب وأخذ بلبي وعقلي بسحره وجماله ، فلم أجد بدا من الانتقام بعد ان وقعت في الفاحشة مع ذلك الوغد راعي الغنم ، اللهم اني اتوب اليك واستغفرك فطهرني من الذنب الذي أنا فيه واجعلني في عبادك الصالحين • ويعقد حاكم الولاية اجتماعا ويصدرون قرارا باعادة الصومعة الى حالة عظيمة من السقوف المطلية بالفضة وغيرها وتعميرها كأحسن ما تكون عليه القصور • فرفضت رفضا فيه عزة المؤمن وتواضعه • فلست من أصحاب الابهة والقصور ، انما انا راض في صومعة من مثل ما يفعله بقية الزهاد والعباد لكن أي فرحة تلك التي غمرت امي المعذبة بابنها حين سمعت بالافراج عني ولكنها ازدادت غبطة حين علمت بما كان من أمر الطفل وهي تقول لي : نطق الطفل سبحان الله العظيم ، سبحانك ربي أمرك نافذ وقضاؤك عدل وأنت على كل شيء قدير • لكن ما شأن الشيخ الصالح والجماعة المؤمنة حين سمعوا بالافراج عني وبراءتي • قالوا جميعا :

الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين • فانبرى احد الشباب قائلا : الان لا عذر أقيموا أمركم واحكموه وانشروا دعوتكم بين الناس • فقد هيأ الله لكم سبيلا قويما وحجة داحضة للاباطيل • اخواني ان الله أنعم عليكم فاشكروه على نعمائه بذكر الله والدعوة الى الحق في السر والعلانية• ويمسك الشيخ الصالح باحدى البقرات السمان فيذبحها شكرا لله ويوزع منها الكثير على الفقراء ويهدى ويطبخ في البيت طعاما كثيرا يهنأ الحاضرون باكله ، وماذا عن المنافقين والمرجفين فيالمدينة لقد هربوا الى جحورهم كالفيران واذا بالالسن الحداد تخرس واذا بمعاني الايمان تسود البلدة وحديث الخير والايمان يغشي كل مجلس يذكر بعضهم بعضا • ألم يفتروا على هذا الشاب بعد أن الصقت هذه الخبيثة التهم ـ تهما كثيرة مفتراة فقالوا عنه : أن له علاقة بفلانة ، وله سر مع فلانة ، وقد أعدوا الكذب مرتبا وصدقنا نحن ، والله لقد كنا مخطئين حين نصدق هؤلاء الفاسقين في افتراءاتهم على هذا الشاب المؤمن وغيره من المؤمنين • ألم يصل الامر الى أن يتهموا هذا الشيخ الصالح يتهم باطلة حتى خشى الناس أن يحضروا مجلسه وبدأنا نحن المؤمنين ـ كما نقول ـ بدأنا نمنع ابناءنا من حضور درس الايمان • والله لقد كان ابن جارنا مؤمنا صادقا حين قال لابيه : ان ما أفعله هو الخير من الله وزيادة في الايمان وان مجالسنا مجالس ايمان وان أخانا الذي اتهم لهو بريء فلنفرض انه قارف ذنبا والمؤمن عرضة للزلل والخطأ • فهذا لايعني ان دعوة الله غير صحيحة ونتركها لخطأ أحد دعاتها • ومع كل هذه فاني أجزم أنه بريء مما يصفون وسأبقى على دعوة الله مهما الاقي من

العذاب وأحضر مجلس شيخنا الرجل الصالح الذي هـــو محل البركة ومنع العلم والعرفان • وفي غمرة هـــذه الاحداث ، احداث بدأت بالمآسي وتتابعت بعدها الاحزان • وكان يمسك بزمامها الصبر والايمان ، وأعود الى البيت ، أعود الى المجلس ، أعود الى الحياة ، أعود بهيبة ما ملكتها من قبل ولم يملكها حتى حاكم الولاية رغم انه رجـــل صالح •• عدت أرى الارض غير الارض والناس غـــير الناس ، وكنت أحيانا ارى همسات واشارات ، هذا هـــو الشاب الصالح الذي نجاه الله من الفتن وبرأه من الافتراءات والاكاذيب • واذا أقبل الخير أقبل فقد كان حاصلنا لذلك العام عظيما بركة من الله فما ان انهينا بيع المحاصيل حتى صار لنا مال كثير والحمد لله •• وهنا جلست الى امي في احدى الامسيات وحدثتها عن رغبتي في الزواج من امرأة صالحة عفيفة • فقالت لي أمي : يابني أنت والله تتمناك البنات أكثر من ذي قبل لقد كن يطمعن في جمالك وحده • فأما الان فقد صار لك معه المال والجاه فلقد ضرت في منزلة عظيمة يابني ، ثم عقبت عليها بقولي : يا أماه لن يكـــون ذلك سببا في غروري ، فان للشيطان مداخل • فجمال باهر ومال وافر وجاه عظيم ، ولكن اعوذ بالله من الشيطـــان الرجيم ومن وسوسته وخبثه ، فانا الان هو ذلك الشـــاب المؤمن المتواضع الذي يريد المرأة الصالحة غنية كانت أو فقيرة ، وبدأنا نتدارس امر الفتيات فمرة تذكر بعـــض القريبات أو الجيران ثم نمحض الامر فلا نصل الى اتفاق • وقد قلت لامي : يا أماه ان لك ان تختاري بشرطين ـ الاول أن تكون صالحة ، والثاني أن أراها لان ذلك سبب فـــي

الموائمة والانسجام • ونمضي الليل ونحن نفكر في هـذا الامر • ثم عدنا الى الفراش وظلت تجول في خاطري أمور حول هذا الموضوع وقلت من الافضل أن أستشير عمي الشيخ أبا ابراهيم لانه جرب الحياة فعرف حلوها ومرها ، كما انه سيستشير أم ابراهيم فلها علم بأخلاق البنات وطبائعهن • فهن احيانا يأتينها ليسمعن منها أحاديث الايمان وقصص الصالحين في غابر الزمان • فما أن كلمته حتى فرح فرحا عظيما وقال : بهذا عصمة دينك ان شاء الله وقال : امهلني الى المساء حيث اني استشير العاقلات من النساء وخاصة أم ابراهيم فهي تحدثني أحيانا عن الصالحات من الفتيات اللاتي يتفقهن في العلم ويزينهن الحياء والوقار والحقيقة اني بقيت اتبع الموضوع باهتمام واسع ، واسمع من امي ما تقول وأعرض عليها بعض الحلول حتى اذا جاء المساء جلست الى عمي اذاكره فقال لي : أتعلم أن فلانا من الصالحين له ابنة صاحبة خلق ودين وذات علم بشؤون البيت مطيعة وان أشد ما اعجبني فيها انها عندما كثرت عليك الاقاويل • وجلس البنات عند أم ابراهيم يحدثنها عن قضية أخذي الى السجن واتهامي فكن يقلن : هذا يظهر خلاف ما يبطن • ولولا أن الحاكم أيقن من جرمه لما أخذه • لقد ردت عليهن هذه البنت بقولها : اني لا اعرف هذا الشاب معرفة عن كثب ولكنني علمت أنه صاحب دين وحياء • فلقد كان يبتعد من الطريق اذ رأى النسوة قد جلسن على طريقه • وكم مرة رأيت والله بعض الفتيات يلاحقنه وهن على حظ عظيم من الجمال والمال والجاه وهو يأبى عليهن وقد سمعت احداهن تتحدث

بغضب شديد وتقول هذا الوحشي لا يلتفت الي ولايكلمني وانا في جمالي ومالي لاعذبنه عذابا شديدا ، ولانفق كل شيء لتحطيم كبريائه ، وأتوسل بكل وسيلة للايقاع به لعله مغرور بجماله بعيونه وخدوده ·· وبيني وبينه الزمن · فقلت لها : حينئذ انه لشاب مؤمن طاهر عفيف ليس بالمتكبر لان الكبرياء من صفات الشيطان فالاولى أن تدعيه وعبادته فوالله من قصده بسوء أذله الله وكان ما كان ، فكان أن أوذيت أذى شديدا من صويحباتها وراحت تبكي الى أهلها من شدة كلامهن وقسوتهن · فما ان رأتها أمها تبكي حتى سألتها ، فلم تجبها وجاءت تسألني عن الخبر ، فذكرت لها ما حصل · فقالت لها أمها : مالك ولهذا الشاب اتهم بأمر وأنت لست بابنة عمه ولاتعرفينه؟ فقالت لها : يا أماه أهكذا يكون كلامك وأنت المؤمنة العابدة ؟ أليس من الحق والواجب على كل مؤمن أن يكون غيورا على عرض أخيه أن يثلم وأن يرد كل المنافقين والكاذبين · وأنا لست أفعل هذا من أجله هو لذاته ولكن تلبية لامر الله وايفاء بعهده علينا نحن المؤمنين · يا أماه اذا كان الامر كذلك فسيضيع المؤمنون ، أين الاخوة في الله ؟ واذا كان الامر هكذا سهلا كما تريدينه فغدا يثلم عرض أي رجل صالح ، فيسكت الاخرون وبعدها يلثم عرض جارتنا العابدة الزاهدة لابد أن نكون على وعي بما يراد بالجماعة المؤمنه وهي في مسيرتها تشيع الفضيلة وتنشر النور لله وحده · يا أماه قلت ما قلت وتحملت بسببه ما تحملت · فقالت لها أمها · والله انك لعلى حق لم نكن ندرك هذا من قبل بارك الله فيك · هذه هي الفتاة ولها

جمال يعجبك مع ما ذكرت لك من دينها • فقلت له : والله هذا الذى اريد فلاكلم أمي اولا فكلمت أمي فوافقت وقـد رأيتها عند ام ابراهيم حين جاءتها تمشي على استحيـــاء فرضيتها زوجة على ان تتكلم في الموضوع فلما كلم أبوهـا وعلمت وافقوا شريطة رضاها فما ان سمعت الفتاة هذا الكلام حتى قالت لامها : يا أماه والله اني لاعزه أكثر مما أعز أخي يوسف ولكن لي موقفا احتسبه عند الله فلا اريد أن تشوبه شائبة والله أعلم بما في نفسي •• فما ان بلغني رفضها حتى حزنت حزنا شديدا لانها صدمة من امــرأة مؤمنة فكادت تساورني أمور وتخالجني خطرات ولكنــي رجعت الى نفسي وقلت : اني لاكبر منها الصدق والاخلاص في الحالين • وأسأل الله لها الرجل الصالح • فكان أن تزوجها أعز اصدقائي وأحبائي ممن عاش معي محنتي •• وبعدها جلست مع أمي ثانية وثالثة أعود الى عمـــي استنصحه فكانت تلك الفتاة سببا في زواجي من بنـت صالحة جدا حتى انها قالت : قولوا له ان من خطبها لهي والله خير مني ، فعسى الله أن يوفق الجميع الى الخـير فكانت هذه الفتاة محل رضا امي وموافقة عمي • فحمدت الله على هذه النعمة العظيمة وحسن الخاتمة •

الزواج الطاهر

وفي ليلة جميلة مقمرة هيأت تلك الفتاة الجميلــة الحسناء يزيدها حسنا وجمالا فتانا ومتانة دينها وحسن خلقها في عرس جميل وأهازيج تزيد الموكب بهاء وتمنى لي الجميع الخير وبقيت أحيا الحياة الايمانية بعزم وصدق•

لقد أعانني الله على مصاعب الحياة وصبرت والصبر جزاؤه عظيم • تمت

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

٣٧٧ لسنة ١٩٧٩

تاريخ انتهاء الطبع ١٩٧٩/٣/٢٢